
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

ابن كمال باشا
سيوطي الدولة العثمانية

د. محمد حسين أبوالفتوح

أولاً: لمحة سريعة إلى عصر المؤلف

تولى حكم الدولة العثمانية السلطان بايزيد خان الثاني سنة ٨٨٦هـ.

وكان هذا السلطان ميالاً للسلم أكثر من الحرب، محباً للعلوم الأدبية ومشتغلاً بها؛ ولذلك سماه بعض مؤرخي الترك بايزيد الصوفي.

إلا أنه اضطر إلى بعض الحروب الداخلية، لكن الدولة كانت في رغد من العيش.

وقد ارتقت الصناعة في عهد السلطان سليم الأول ابن السلطان بايزيد الثاني، ففي سنة ٩٢٠هـ استولى السلطان سليم الأول على خزائن الشام وأرسلها إلى القسطنطينية، وكذلك أرسل إليها أربعين شخصاً من أمهر الصناع، الأمر الذي يدل على عدم إغفاله تقدم الصناعة والنهوض بالدولة أثناء اشتغاله بالحروب. زيادة على ذلك أن العلماء في هذا العصر كانت لهم مكانة عالية تسمو مكانة الأمراء، والذي يدل على ذلك أن أحمد بن سليمان بن كمال باشا كان عند إبراهيم باشا ابن خليل باشا وزير السلطان المجاهد بايزيد خان، فرأى شخصاً رث الهيئة خلق الثياب، جاء وجلس فوق بعض الأمراء والكبار ولم يمنعه أحد عن ذلك، فتعجب لذلك أحمد بن سليمان وسأل أحد رفقائه: مَنْ هذا الذي جلس فوق هذا الأمير؟ فأجابه: هو رجل عالم مدرس بمدرسة فلبه، يقال له: المولى لطف الله، فقال أحمد بن سليمان: وكم وظيفته؟ قال: ثلاثون درهماً، قال: فكيف يتصدر هذا الأمير ومنصبه هذا المقدار، قال له رفيقه: إن العلماء معظمون لعلمهم، ولو تأخر لن يرضى بذلك الأمير ولا الوزير.

واستمر الحال هكذا في الدولة حتى سنة ٩٤٠هـ، ولو أنه قامت بعض الحروب الداخلية والخارجية مع دول أوروبا(١).

ثانياً: التعريف بالمؤلف

اسمه: أحمد بن سليمان.

لقبه: شمس الدين، مفتي الثقلين(٢).

كنيته: ابن كمال باشا زاده.

مذهبه: حنفي المذهب.

أصله: تركي الأصل مستعرب.

نسبته: رومي، فهو من موالي الروم.

فهو أحمد بن سليمان، شمس الدين، المعروف بابن كمال باشا زاده شيخ الإسلام، الرومي ومفتي الثقلين، الحنفي(٣).

أسرته: كان جده كمال باشا زاده من أمراء الدولة العثمانية، ونشأ هو في حجر العز والدلال، وكان رفيق السلطان سليم الأول في اتجاهه نحو الشام ومصر سنة ٩٢٢ هجرية(٤).

موطن ولادته وتاريخها

ولد أحمد بن سليمان بن كمال باشا في أدرنة(٥)، ولم أجد في المراجع تاريخ ولادته.

وفاته

توفي أحمد بن سليمان بن كمال باشا سنة أربعين وتسعمائة هجرية، في دار السلطنة، القسطنطينية، حيث كان مفتياً فيها إلى أن توفي(٦).

وقيل إنه توفي في سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة هجرية(٧)، ولكن المراجع اتفقت على أن وفاته في سنة ٩٤٠هـ.

أخلاقه ومكانته بين العلماء

كان أحمد بن سليمان بن كمال باشا صاحب أخلاق حميدة حسنة وأدب تام وعقل وافر.

قيل عنه: إنّه الإمام العالم العلاّمة الرُّحلة الفهّامة، أوحد أهل عصره وجمال أهل مصره، مَنْ لم يخلف بعده مثله ولم تر العيون مَن جمع كَماله وفضله، جعله الكفوي من أصحاب الترجيح من المقلدين القادرين على تفضيل بعض الروايات على بعض.

التف حوله العلماء في مصر حينما ذهب إليها وناظروا وباحثوا معه، فأعجبهم فصاحة كلامه وأقرُّوا له بالفضل، إليه تُشد الرحال، وتعقد الخناصر له، أنسى ذكر السلف بين الناس وأحيا باع العلم بعد الاندراس، وكان في العلم جبلاً راسخاً وطوداً شامخاً(٨).

سبب انصرافه إلى العلم وانشغاله به

السبب في اشتغاله بالعلم والباعث له على تحصيله، أنه رأى مرة عند إبراهيم باشا بن خليل باشا وزير السلطان المجاهد بايزيد خان، شخصاً رث الهيئة خلق الثياب، جاء وجلس فوق بعض الأمراء الكبار المتقدمين في الدولة، فاستغرب ذلك! وسأل عن السبب فيه، فقيل له: أيبلغ العلم بصاحبه هذه المنزلة! فقيل له: وأزْيَد، فانقطع من ذلك الحين إلى العلم، ووصل إلى المولى لطفي، وقرأ عليه حواشي شرح المطالع، واستمر يقرأ على بعض العلماء مثل المولى القسطلاني، إلى أن مهر وصار إمامًا في كل فن(٩).

شيوخه

١ ـ المولى لطفي الرومي التوقاني، الذي أعطي مدرسة دار الحديث بأدرنة في زمن السلطان بايزيد خان.

٢ ـ خطيب زاده.

٣ ـ معروف زاده.

٤ ـ المولى مصلح الدين القسطلاني(١٠).

ثقافته

نشأ أحمد بن سليمان بن كمال باشا في أدرنة وتعلّم بها، وهو من علماء دولة السلطان سليم الأول ابن السلطان بايزيد خان.

قرأ مباني العلوم في أوائل شبابه، وكان يشتغل بالعلم ليلاً ونهاراً ويكتب جميع مالاح بباله.

وله يد طولى في الإنشاء والنظم بالفارسية والتركية وصنّف كتاباً بالفارسية على منوال كتاب كلستان وسماه بنكارستان، وكان بارعاً في العلوم قلّما يوجد فن إلا وله فيه مصنف أو مصنفات.

مصنفاته

صنف مصنفات كثيرة في مختلف العلوم، أذكر منها بعضها على سبيل المثال:

أولاً: في التفسير:

١ ـ تفسير القرآن العزيز.

٢ ـ حواش على الكشاف.

٣ ـ حواش على أوائل تفسير البيضاوي.

٤ ـ الكلام على البسملة والحمدلة.

ثانياً: في الفقه:

١ ـ الإصلاح والإيضاح.

ثالثاً: في الحديث:

١ ـ شرح الجامع الصحيح للبخاري.

٢ ـ شرح حديث الأربعين.

٣ ـ شرح مصابيح السنة للبغوي.

رابعاً: في التاريخ:

١ ـ مرآة الجنان.

٢ ـ النجوم الزاهرة في أحوال مصر القاهرة.

٣ ـ طبقات المجتهدين.

٤ ـ طبقات الفقهاء.

٥ ـ تاريخ آل عثمان.

خامساً: في الأصول:

١ ـ تعليقه على أوائل التلويح للتفتازاني.

٢ ـ تغيير التنقيح على تنقيح الأصول.

سادساً: في علم الكلام:

١ ـ نزاع الحكماء والمعتزلة بالأشاعرة.

٢ ـ التجويد في علم الكلام.

وغير ذلك في شتى العلوم، فقد ألف ما يزيد على ثلاثمائة رسالة في اللغة وغيرها، وفي غير اللغة العربية مثل الفارسية والتركية، كما سبق أن ذكرت(١١).

من معاصريه

من معاصريه جلال الدين السيوطي، وهو وإن كان مساوياً للسيوطي في سعة الاطلاع في الأدب والأصول، إلا أنه كان أدق نظراً من السيوطي، وأحسن فهماً وأكثر تصرفاً، على أنهما كانا جمال ذلك العصر وفخر ذلك الدهر، ولم يُخلف أحد منهما بعده مثله.

فابن كمال باشا كان في كثرة التأليف وسعة الاطلاع في الديار الرومية كالجلال السيوطي في الديار المصرية(١٢).

المناصب التي شغلها

١ ـ درّس في بلاده بعدة مدارس.

٢ ـ تولى القضاء بمدينة أدرنة.

٣ ـ تولى القضاء بالعسكر في ولاية الأناضول.

٤ ـ تولى التدريس في دار الحديث بأدرنة.

٥ ـ تولى التدريس في مدرسة السلطان بايزيد خان بأدرنة.

٦ ـ تولى أخيراً الإفتاء في القسطنطينية، وصار بها مفتياً إلى أن توفي سنة ٩٤٠هـ.

تاريخ دخوله مصر

كان أحمد بن سليمان بن كمال باشا قاضياً بالعسكر المنصور في ولاية الأناطولي، ولما اتجه السلطان سليم الأول إلى الشام سنة ٩٢٢هـ صحبه أحمد بن سليمان، وفي الثامن من المحرم سنة ٩٢٣هـ دخل السلطان سليم القاهرة لتخليصها من الجراكسة وبصحبته أحمد بن سليمان، وهناك التقى أحمد بن سليمان بعلماء مصر ولقي منهم حفاوة وتقديراً.

ويحتمل أن يكون ابن كمال باشا قد عاد إلى القسطنطينية في أوائل سبتمبر سنة ١٥١٧م الموافق شهر شعبان سنة ٩٢٣هـ، أي أنه مكث في القاهرة زهاء عام، وعاد إلى القسطنطينية حيث عمل مفتياً هناك حتى توفي سنة ٩٤٠هـ.

الهوامش

(١) تاريخ الدولة العثمانية ص ٦٨ ـ ٩٠ والشقائق النعمانية ص٢٢٦ـ ٢٢٧.

(٢) مجلة المقتبس، المجلد السابع ـ الجزء العاشر سنة ١٩٠٦ تحقيق سليم أفندي البخاري، عن مخطوط قديم في مكتبة جميل أفندي الشطي.

(٣) انظر الشقائق النعمانية ص٢٢٦، الأعلام جـ١ ص١٣٠، شذرات الذهب جـ٨ ص٢٣٨ سنة ٩٤٠هـ، الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص٢١، الطبقات السنية في تراجم الحنفية جـ١ ص٤٠٩، هدية العارفين جـ١ ص١٤١، الكواكب السائرة جـ٢ ص١٠٧ إيضاح المكنون ٩٦/١.

(٤) الشقائق النعمانية، الطبقات السنية في تراجم الحنفية جـ١ ص٤١١، تاريخ الدولة العثمانية ص٧٥.

(٥) مجلة المقتبس، المجلد السابع ـ الجزء العاشر، هامش.

(٦) الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص٢٢، الشقائق النعمانية ص٢٢٧.

(٧) مجلة المقتبس، المجلد السابع ـ الجزء العاشر، هامش.

(٨) الشقائق النعمانية ص٢٢٧، الطبقات السنية في تراجم الحنفية جـ١ ص٤١١، الفوائد البهية ص٢١ـ٢٢.

(٩) الشقائق النعمانية ص٢٢٦ـ٢٢٧، الطبقات السنية في تراجم الحنفية ص٤١٠.

(١٠) المراجع السابقة.

(١١) انظر هدية العارفين جـ١ ص١٤١، والأعلام جـ١ ص١٣٠، وفهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية، والفوائد البهية ص٢١ـ٢٢، والشقائق النعمانية ص٢٢٦ـ٢٢٧، والطبقات السنية في تراجم الحنفية جـ١ ص٤٠٩ـ٤١٢.

(١٢) انظر الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص٢٢ والطبقات السنية في تراجم الحنفية ص٤١٢.